فى الأدب التركى

شاعر فيلسوف

ولد رضا توفيق بولاية أدرنة بالروميلى ، وتلقى العلوم الابتدائية والثانوية فى مدارس ومدن مختلفة تبعاً لتنقلات أبيه الموظف ، حتى تخرج فى مدرسة الطب باستانبول ، بعد أن فصل منها ومن غيرها من المدارس عدة مرات لشقاوته وعدم خضوعه للنظام ، وتلاوته كتب نامق كمال الحماسية وأشعار عبد الحميد ضيا باشا من المعارضين للحكم الاستبدادى ، على زملائه من الطلبة . ثم وضع دبلوم الطب فى جيبه — كما قال لنا ذلك — وشرع يدرس الفلسفة ، وقد تعلم من اللغات العربية والفارسية ، والفرنسية ، والانجليزية ، والألمانية ، والاسبانية ، وأجاد معظمها بما له من حسن الاستعداد لتعلم اللغات فوق ذكائه الحاد ، واشتهر بالفيلسوف .

كان الدكتور رضا توفيق ينشر آراءه الفلسفية بعناوين جذابة : كعلاقة الفن بالعلم ، ومبحث اللسان ، وفلسفة ابن رشد الأندلسى ، وابن خلدون وحكمة التاريخ وغيرها ، فى المجلات العلمية والأدبية المعروفة فى ذلك الوقت، ثم نشر المحاضرات التى ألقاها على طلبة الجامعة بعنوان «دروس الفلسفة» وألف قاموساً للفلسفة ظهر منه أجزاء ، ولكنه لم يتمكن من إتمامه لاضطراره إلى ترك وطنه على أثر انتصار الحركة الكمالية فى الأناضول . وقد أظهر لنا أسفه الشديد لبقاء كتابه هذا ناقصاً ، حين قدم إلى القاهرة سنة ١٩٢١، وكان معقد آماله فى عمله الفلسفى . ودرس كتاب الـ «مقبر» ، وهو رثاء الشاعر عبد الحق حامد لزوجته التى توفيت ببيروت ، وكتب عنه مجلداً كبيراً بعنوان «ملاحظات حامد الفلسفية» وهو خير ما كتب عن ذلك الشاعر، وكتب مقدمة فلسفية قيمة لترجمة رباعيات عمر الخيام إلى التركية. والدكتور رضا توفيق يبحث عن المجهول ، ويحن كثيراً إلى الماضى . فلا تكاد تخلو منظومة من شعره من هذا الاحساس ، سواء كانت فى موضوع فلسفى ، أو أدبى محض .

هكذا اشتهر الدكتور رضا توفيق بالفيلسوف ، وإن لم يكن له مذهب خاص فى الفلسفة ، وقبل هذه الشهرة بارتياح ، وطرق موضوعات فلسفية مختلفة بأسلوبه الشائق . ولكن فلسفته لم تؤثر فى الشعب التركى ، ولم ينشأ من يقتفى أثره لأسباب لعل من بعضها أن الطبقة المثقفة لم تكن قد تهيأت بعد لقبول تلك الآراء الحرة وهضمها . فقد كان أساتذة المدارس الدينية وطلبتها يرمونه بالالحاد فيكرهون الناس فى آرائه . ومن أهم أسباب ذلك أيضاً اشتغاله بالسياسة ، والسياسة كثيراً ما تجنى على الناس ولا سيما العلماء الاخصائيين . وقد نشط الفيلسوف فى السياسة ، بعد أن رفع عنه ضغط الاستبداد باعلان الدستور ، نشاطاً انتهى به ، مع الأسف الشديد ، إلى مغادرة وطنه فى خير وقته ، وحرمان الأمة التركية علمه الغزير الناضج . لم يبلغ الدكتور رضا توفيق إذن ما طمح إليه كفيلسوف ، أو لم يمكن منه ، ولكن له ميداناً آخر نجح فيه نجاحاً حسنا . ذلك أنه شاعر ، وقد بدأ يقرض الشعر تلميذاً فى المدارس الثانوية وظهر فيه نبوغه بسرعة .

كان الشعر التركى القديم على الأوزان العربية التى نقلت إلى الأدب التركى عن طريق الأدب الفارسى ؛ واستمر هذا النوع من الشعر الذى بدأ منذ القرن الرابع عشر الميلادى حتى أواخر القرن التاسع عشر . وكان إلى جانب هذا الشعر الأرستقراطى الذى يمدح به السلاطين والأمراء والوزراء شعر من نوع آخر وهو الشعر الصوفى ، يترنم به رجال الطرق الصوفية فى مجتمعاتهم فى زواياهم منذ تسرب التصوف إلى الشعب التركى ، ويذيعون به آراءهم الصوفية فى الطبقات الشعبية . ولهذا الشعر أوزان وقوالب خاصة . ولكن هذا الشعر كان يعد كلاماً عاميا لايعتد به ولا يعد من الأدب فى شئ .

ولما أعلن الدستور العثمانى ، ونهضت الحركات القومية والأدبية فى العناصر المؤلفة لتلك الدولة ، أخذ كتاب الأتراك «يترّكون» اللغة العثمانية بتخفيفها مما بها من الكلمات العربية والفارسية ، وأحس الشعراء حاجة إلى أوزان للشعر تتفق وبيئة اللغة التركية التى زادت نسبة الكلمات التركية فيها عما كانت عليه من قبل . ففكروا فى العودة إلى الأوزان التركية المستعملة فى الشعر

الصوفى والشعبى . وكان الشاعر محمد أمين من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، على رأس المنادين بهذه الفكرة . إلا أن الشعراء الذين درجوا على قرض الشعر على النظام القديم لم يجدوا فى شعر محمد أمين وشيعته ما يجدونه من اللذة والجمال فيما ألفوه من الشعر القديم ؛ فاتهموهم لميلهم إلى هذه الطريقة الجديدة بالجهل بالعروض. وفى هذا الوقت انضم الدكتور رضا توفيق إلى صف المجددين وغيّر الموقف .

كان رضا توفيق يقرض الشعر على أصول المتقدمين ويجيده . ولما انضم إلى المجددين درس الشعر الصوفى المسمى شعر التكايا دراسة جيدة، وابتدأ ينظم قصائد فى كل أنواعه وقوالبه . فبعد أن كان الشعراء ينظرون إليه نظرة استخفاف ويحسبونه غير صالح لأن تنشأ فيه قصائد محتوية على موضوعات طويلة ظهر فى قصائد رضا توفيق أنه صالح للتعبير عن الاحساسات والشعور كالشعر الأرستقراطى الموزون بالأوزان العربية دون أن ينقص منه شئ من الخيال الشعرى . وقد يذ شعره المؤلف على الأوزان التركية شعره الأرستقراطى القديم ، من ناحية الخيال وجمال الشعر ، مع سهولة اللغة وصدق التعبير . وفى هذا الوادى وجد الشاعر رضا توفيق من يقدره ويقتفى أثره دون نظر إلى مذهبه السياسي وهو مع نجاحه فى هذا الوادى الجديد ، لاينكر فضل الشعر القديم إذ قال :

«إنى لست معارضاً للشعر الأرستقراطى . ولا ينبغى التورط إطلاقاً فى الحكم على الأمور الخاصة بالفن سواء أكان كلاسيكيا أى وجدانيا Romantique أو رمزيا Symbolique فان أربابه يأتون بالبدائع . وقد اكتسبت هذه العقيدة بالتجارب. هل الوزن والقافية يحولان دون قرض الشعر الجميل ؟ وهذا إنما يتوقف على استعداد الشاعر . لأن الشعر يحتاج إلى الاستعداد ، والكتابة إلى القدرة .

« ومن الممكن قرض جميع أنواع الشعر ، لأن لنا شخصيات مختلفة ، ولحياتنا القومية صفحات متنوعة . فمن الطبيعى والضرورى أن يكون لنا لسان حال متنوع . ولكن يجب أن يكون شعرنا القومى الأصلى على الأوزان التركية، ويجب أن يكون هذا الشعر القومى أهم أشعارنا ! »

كان الدكتور رضا توفيق ينشر قصائده فى المجلات الأدبية المعروفة فى ذلك العهد ، ثم جمعها فى ديوان سماه «سراب عمرى» وطبعه فى مدينة لفقوشة بجزيرة قبرس سنة ١٩٣٤ ، ثم نشر الأديب كوك آلب آركين باذن منه

بعض أشعاره المبعثرة مع ترجمة حياة الشاعر ، فى استانبول سنة ١٩٣٩ . ومن هذا الكتاب الأخير ننقل إلى القراء نثراً ، قصيدة من شعره يصف فيها باسهابه المعروف رجلا قرويا قد بلغ من الكبر عتيا ، وهى قصة :

الخال حسن الأكبر

طوّفت ناحية من بلاد الروميلى من أولها إلى آخرها ، واجتزت جبالا خالية وأحراجاً كثيفة ومياهاً جارية . كان الوقت صيفاً . وفى الصباح بلغت قرية خربة فى حفرة ، مستدلا بمقابرها . هى بضعة من الأكواخ سودها الدخان ، على سفح جبل يعلوها الضباب ، مستغرقة فى النوم فى ظل غابة . قرية صغيرة فقيرة . مبنية من سعف وحصر يجول فيها ليلا ذئاب تهبط إليها من الغابات . وليت شعرى ما الحكمة ! إن فى تلك الجبال والبرارى والبساتين جمالا مبعثرا لا يسأم المرء النظر إليه ؛ فالمياه تنحدر ، والريح تنتحب ، ولا تسمع من الجداول غير الأنين والنحيب ؛ تشاهدها فى ظلال أشجار القسطل (أبى فروة) كأنها خيال ، يغرد البلبل على أغصان الشجر اللينة وترى فى حمرة الأزهار الباسمة فى الحقول ، وجوه العرائس الوردية ، ذات العيون الزرق .

وإذ تمر مستغرقاً فى الحيرة بشاطئ نهر رملى ومعابر كثيرة الالتواء ، تستأسر عينك فلا تستطيع فراقها ؛ فقد غدت شقائق الغابة السوداء الوحشية ، حمراء قانية ، كأن يد القدرة الالهية نقشتها بدماء الشهداء . وإذا كان المساء فكأن حداداً يلف تلك الجبال ويغطى الدخان قمم الصخور الجرد الشاهقة ، وكل شقيقة نعمانية تبدو من بعد كأنها قطرة من الدم ، وتحسب ترابه وصخوره موضع غزوة !

يسير الظل مداعبا القرية ويحيط بالأفق ، وتحدث الصخور الوعرة التى فوق الجبال ، أصداء فى المياه الجارية . وفى كل ليلة ينثر الظلام درراً على المراعى . وإذا كان الصباح سفرت الشمس عن وجهها كأنها ملك !

سررت بتلك البقاع كأنى حالم ، واهتديت إلى طريق ذاهبة إلى الأجران فبلغت قرية ، ولم أكن منفرداً ، بل كنت مرافقاً لقلبى من زمن بعيد . ولست أدرى فيم فكرت ، ولم استغربت السفر ؟

كنت قد بلغت مفترق الطرق الأربع ، ودنوت من المسجد . ووقفت هنيهة متلفتاً حولى ولمحت شيئاً : شجرة دُلب باقية من عصور ، بأسفلها شيخ أبيض ناصع البياض ، عليه عمامة خضراء . إنه أمير اتكأ على شجرة على عين ماء ، ونظرته القاتمة المستغنية ، الخالية من الغم والشعور ، تروى الأساطير ! شيخ تركمانى مسن ، حديد صدىً ! لم يبق له قرين . وإذا كان له فى هذه القرية من قرين ، فهو هذه الشجرة العظيمة الباسقة التى يستظل بظلها ! وشمس القرية المشرقة صباحاً تلثم لحيته البيضاء النقية وتداعبها . كانت بسمات الشمس البهجة تسطع على هذا الوجه ، ولكن الزهور لم تعد تتفتح على الجبل العظيم المغطى بالبرد ! فهو ثابت لا يريم ، كأنه جذع شجرة قد هوت ، ولا يتحاشى عن هذا الشيخ الوديع حتى الطيور .

تقدمت قليلا قليلا واجتزت جدول ماء ، ووصلت إليه بعد خطوات قليلة دون إحداث ضجة . فحييته ورد التحية ، وقدمت إليه الدخان فابتهج ، واستيقنت أنه مسلم . قدحنا الزناد ، وأشعلنا الشبوق ودخنا قليلا ، وتحدثنا وتبادلنا الأكاذيب . وامتد بيننا الكلام من حديث إلى حديث ، وسألنى من أين أنت ؟ فقلت من استانبول .

وقال : «هل السلطان محمود على قيد الحياة ؟» ثم جاش فجأة وقال : «خدمته خمسة أعوام خدمة عسكرية وأكلت من خبزه . ما أعظمه سلطاناً ذلك الأسد ذا الجلال !... كان يحضر على جواد أشهب فتحسبه نسراً ، وتميزه فى لحظة بين ألف من الأبطال ! فقد كان وزيره ذو اللحية البيضاء يرتعد أمامه ، وتسير خلفه فيالق كالبحر الخضم . ويقال إن سبعة من الملوك يطيعون أمره ! كانت له قوة الأولياء ويقال إنه وصل إلى الله . ما أسعد تلك الأيام وما أسعده عهداً ! كنت شابا إذ ذاك وجاويشاً ببابه . ولما أتممت خمسة أعوام عدت إلى القرية ، ولم أغادرها مرة أخرى . فقد اتخذت مزرعة وأعددت لها ما يلزم من عدد . وذهب أبنائى إلى الجندية ، ولم يعد منهم أحد ، ولم يأت نبأ أحد منهم حتى اليوم . ثم ماتت الزوجة ! فأنا وحيد منذ زمن بعيد وعبد ضعيف فى براثن الشيخوخة .» كان يتحدث إلى بتلك الكلمات وأصغى إليه بعناية تامة . وقد أحسست ألماً فى نفسى وانبعثت آهة من قلبى .

أثرت فىّ قصته تأثيراً شديداً ، وأدّن فى قلبى الجريح آذان الماضى !...

فبكيت بكاء ساكتاً واغرورقت عيناى بالدموع ، إذ علمت مسكنته وعيشه وحيداً ! ولكن زاد فىّ حب الاستطلاع ، فسألته عن حياته وعن عمره ، باحثاً منقباً عن شاهد القبر الحى هذا ! فقال :

«ولدت فى هذه القرية ولم يبق لى أولاد ، ولعلى بلغت الخامسة والثمانين وليس لى أحد فى هذه السن! ولم يبق فى العين نور ، ولا فى الركبتين قوة ولا فى الروح نفس ، أقضى ليلى ونهارى فى هذه السن كالبوم . لاتدقق فى السؤال. فقد كانت لى أيضاً أيام سعيدة . ويدعونى حسن الأكبر . وإذا قيل الخال حسن عرفتنى نساء القرى السبع وبناتها وأكبرن شأنى . وقد يحضرن لزيارتى أيام دراس الغلال.»

قلت : «يا عماه ! إنى عائد إلى استامبول ، فهل لك أن ترافقنى ؟ سأخدمك خدمة الابن لأبيه ، فتفضل ضيفاً علىّ ، إنك ستخدم عندنا ويعتنى بك . ففى الصيف يقدم إليك البن الطازج وتوقد النار فى الشتاء ، ولعلك تستجم ! »

صار وجه الشيخ ناراً واتقدت جمرة عينيه الذابلتين وقال :

«ما هو أملى فى هذه الدنيا بعد اليوم ؟ رضى الله عنك وأنا راض عن قريتى . كم سرور وبهجة رأى قلبى وعيناى فى هذا البلد ! وكله كذب وقد ذهب كما جاء . وما هذه الدنيا الفانية إلا حلم ! ومن جاء إليها ذهب منها، وقد ارتحلت القافلة وتخلفت ، وعقد لسانى من الوحدة ، وخرفت من العزلة ؛ فكل موضع بعد الآن قبر لى . فأين ذلك المكان الذى ينجو فيه المرء من براثن الموت ؟

«انظر ! إنى ورق قد اصفر وجف ، وإذا هبت ريح الأجل فهذا المكان قبرى ! بكيت من ماتوا قبلى لكى أموت هنا مستريحاً . فكم من روح فارقتها هنا ، وكم من مرة لبست الحداد !... لقد ضحيت فى سبيله بثلاثة من أبنائى كالضراغم . وفى سبيله بعت المزرعة وخربت الدار . ولعله مضى سبعون عاماً لم أخرج من هذه القرية ، ولم أسأم غاباتها ولا طيورها وأنهارها .

«هذا هو أما تمناه يا بنى : إنى أريد الموت هنا ، ماذا أفعل فى بلاد الغربة ؟ أريد أن أدفن هنا !...»

حمزة طاهر